مع كتاب (الرواية التاريخية في أدبنا الحديث)

للدكتور حلمي القاعود. عرض ودراسة

في ميدان الدراسات الأدبية تبقى الدراسة التطبيقية أكثر أثراً ورسوخاً، لأنها تستند إلى أرض حقيقية، وتخوض في عالم حافل بالحياة، وتقدم للقراء ثمرات حقيقية ذات طعوم متعددة.

وكتاب «الرواية التاريخية في أدبنا الحديث» من هذه الدراسات التطبيقية التي تحمل سمات الجهد، والمتابعة الصابرة، والنشاط الدؤوب الواعي. لأنها تختلف عن (المقدمات) و(التعريفات) و(التقريظات) التي لا تكشف للقارىء عن سمات الإبداعات التي تتناولها.

وصاحب هذا الكتاب «الدكتور حلمي القاعود» أديب وناقد وصحفي معروف، عرف بدراساته الكثيرة، ومقالاته المتنوعة، فهو يكافح على أكثر من جبهة، ويثبت جدارته في أكثر من موقع، كتب الزوايا المختلفة، والتعليقات المنوعة والتحليلات الطويلة، والدراسات الجامعة، وشارك في ميدان الإبداع من خلال المقالة، والقصة والرواية[1].

وله مشاركات وإسهامات كثيرة في النشاطات الأدبية والتربوية، فهو مُدرِّس وأستاذ في أكثر من جامعة، ومحاضر في المنتديات، ومقدم لبعض البرامج.

---

(١) نشرت له الكتب التالية: (الغروب المستحيل) دراسة نقدية في أدب محمد عبدالحليم عبدالله و(مدرسة البيان في النثر الحديث) و(موسم البحث عن هوية) دراسات في القصة والرواية، و(محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر العربي الحديث)، و(القصائد الإسلامية الطوال في الأدب العربي الحديث)، بالإضافة إلى هذا الكتاب (الرواية التاريخية في أدبنا الحديث ـ دراسة تطبيقية)، وله عدد من الكتب الأخرى في مجال الدعوة والفكر والسياسة (الحروب الصليبية العاشرة)، (مسلمون لا نخجل)، (حراس العقيدة)، (العودة إلى الينابيع)، (الصلح الأسود). وله في ميدان الإبداع الأدبي (رائحة الحبيب) مجموعة قصص. و(الحب يأتي مصادفة) رواية.

وكتـاب «الـرواية التاريخية في أدبنا الحديث» سفر هام في ميدان الدراسة التطبيقية للقصـة التـاريخية في الأدب العـربي الحديث، وتأتي أهمية الدراسة من المساحة التي استغـرقتهـا. حيث غطت أكثـر ما صدر في هذا المجـال خلال القـرن الحـالي (العشرين)، وبلغت صفحات الكتاب ثمان وسبعين وثلاثمئة صفحة من الحجم المتوسط (١٧×٢٤سم). ما عدا صفحـات المصـادر والمـراجع وفهرس الموضوعات، ولكن هذه الصفحات بكثافة سطورها، وصغر حرفها تعادل أكثر من خمسمئة صفحة من هذا الحجم.

والكتـاب من بدايته لنهايته ينم عن الجهد المبـذول في هذه الدراسة القيمة. لأن الكاتب حاول، مخلصاً، استيعاب ما صدر من الروايات التاريخية في مصر، ودراستها، وتصنيفهـا، واختيار النماذج التي تحمل سمات هذه الفترة الطويلة، ولذلك فإن الدراسة ليست للقصص التي اختارها فقط، وإنما لعشرات غيرها مما أنتجه كتاب الرواية التاريخية طيلة هذا القـرن وخـاصـة (جـرجي زيدان، وعلي الجـارم، ومحمـد سعيد العـريان، وعبدالحميد جودة السحار، وعلي أحمد باكثير، ونجيب محفوظ، وثروت أباظة، ونجيب الكيلاني، وأحمد كمال زكي، ومحمد مصطفى هدارة، ومحمد جبريل، ومحمد فريد أبو حديد، ومحمـد عبـدالحليم عبـدالله، وطـه حسين، وإبـراهيم الأبياري، وجمال الدين الشيال، وإدوارد الخياط، وعـادل كامـل، ومحمـد عوض محمـد، وكمال بسيوني، وأبو المعاطي أبو النجا، وإبراهيم رمزي، وإبراهيم جلال، ومحمود تيمور وغيرهم)[٢].

ومثل هذا الشمول في البحث والدراسة سيؤدي إلى نتائج هامة ومفيدة في ميدان البحث الأدبي، وسيضع أمام الباحثين صورة واضحة لتطور الرواية التاريخية، صورة حقيقية، تقوم على أسس موضوعية ودراسة ميدانية شاملة.

* * *

واختيار المؤلف لموضوع كتابه جدير بالتقدير لأنه يتناول جانباً أدبياً مهماً، أغفله بقصد أو بغير قصد كثير من الباحثين، مع أهميته، هذا الجانب لا يبرز خصائص هذا اللون الأدبي

---

(٢) لقد جاوز عدد الروايات التي حوتها الدراسة، أو ذكرت فيها بإشارات تدل على اطلاع المؤلف عليها، أكثر من ثمانين رواية.

من القصة فقط، وإنما يبرز أهمية التاريخ كمنجم يمد المبدعين، فضلاً عن الدارسين، بالموضوعات المهمة، والشخصيات المؤثرة، والأحداث المعبّرة، بحيث تبقى معالم مضيئة في عالم الفكر، والفن، والحضارة، وتشكل روحاً تتسرب إلى حياة الأجيال المختلفة في الحاضر والمستقبل لتبعث فيها الحياة والأمل، والنضج والوعي، والمضاء، والجد، والثبات والفضيلة. . . ولقد أوضح المؤلف في الاستهلال هدفه من الدراسة في نقطتين:

١ـ التأكيد على ارتباط الحاضر بالماضي، وتأثير التاريخ في صنع المستقبل، وبالتالي الحرص والاهتمام بالتراث، والعناية به والحرص على إحيائه، وإعادة بعثه وقراءته، لأنه جزء من حياة الأمة وروحها ونبضها المتصل.

٢ـ إنصاف عدد من الأدباء الذين تناساهم الدارسون، وتناسوا إسهاماتهم في هذا الجانب، حيث كانوا أكثر وعياً من غيرهم حينما التفتوا إلى التاريخ، فحاولوا تسليط الأضواء على جوانب مختارة فيه تفيد في بث الوعي للأجيال الحديثة في مواجهتها لمشكلات الحياة وهموم الحاضر، وقدموا النماذج المختلفة من الشخصيات، والأحداث لهذه الأمة المتعثرة، المنكوبة بالاستعمار والقيود، والهجمات المختلفة.

وكان المؤلف وفياً لهؤلاء الرواد، ولمن جاء بعدهم، وكان منصفاً لهم، لمن يوافقهم في الرأي، ولمن يخالفهم أيضاً، حين نفض الغبار عن هذه الروايات، وقدمها ضمن دراسة جادة مستفيضة، مبنية على أسس موضوعية، تكشف عن مضامينها، وخصائصها، ومميزاتها المختلفة. وهو في ذلك يدعو المبدعين للتوجه نحو هذا المنجم العظيم، التاريخ، لعرضه في شتى الصور المبدعة، ولتسليط الأضواء على ما يفيدنا في حياتنا الحاضرة والمستقبلة.

* * *

لقد بدأ المؤلف هذه الدراسة باستهلال مقتضب يوضح فيه هدف الدراسة، والباعث عليها، ويستعرض الدراسات القليلة التي سبقته في هذا الميدان، ثم يعمد إلى تقسيم الروايات التاريخية التي ستتناولها الدراسة إلى ثلاثة أقسام هي: (رواية التعليم) و(رواية النضج)، و(رواية الاستدعاء)[٣].

---

(٣) (الرواية التاريخية) /٧.

ولكن المؤلف في تقسيمه هذا لم يقدم الأُسس الموضوعية التي استند إليها في تقسيمه، واكتفى بالقول: إنه تأمل النماذج العديدة من الروايات التاريخية منذ نشأتها على يد (جرجي زيدان) وحتى أحدث النماذج في عام ١٩٨٩م ورأى أنها فنياً تندرج تحت ثلاثة أقسام ـ كما ذكرنا[٤] ـ.

وعقب على ذلك بقوله: «وقد آثرت أن تكون هذه الدراسة وفقاً للتقسيم الذي استنتجته بعد طول تأمل»[٥].

وكنا نتمنى أن يوضح الكاتب الأُسس التي قام عليها هذا التقسيم من خلال استعراض تاريخي لتطور الرواية التاريخية الحديثة مع تبيان للملامح العامة التي ربطت بين كل قسم من هذه الأقسام.

ثم قسّم الكتاب إلى ثلاثة أبواب كبيرة أسماها أسفاراً، فكان السفر الأول يضم رواية التعليم، والثاني يضم رواية النضج، والثالث يضم رواية الاستدعاء، وختم دراسته الطويلة هذه بخاتمة قصيرة لم تأخذ سوى صفحة واحدة في نهاية الكتاب.

* * *

في السفر الأول، وضّح معنى المصطلح الذي أطلقه على مجموعة من الروايات التي ضمها هذا الباب (رواية التعليم): وهي الرواية التي لا تتوافر فيها الأُسس والمفاهيم الفنية لبناء الرواية، ويجعل منها أصحابها وسيلة لتحقيق غاية أخرى مع التجاوز عن الشروط الفنية[٦] كاكتساب المعلومات أو تعلم المهارة الأسلوبية، أو التعرف على شخصيات تاريخية أثرت في مسيرة الأُمة وحركتها، وبدأت طلائع هذا النوع في بداية القرن العشرين تقريباً[٧] وهذا النوع يمثل عدداً كبيراً من الروايات التاريخية، ومن أبرز كتّاب هذا اللون ـ كما يرى المؤلف ـ جرجي زيدان، وطه حسين، وعلي الجارم، وعبدالحميد جودة السحار، وأبو الحسن إبراهيم أبو الحسن، وإبراهيم الترزي، وإبراهيم الأبياري، وأحمد كمال زكي[٨].

---

(٤) المصدر السابق/ ٧.
(٥) المصدر السابق/ ٨.
(٦) المصدر السابق/ ٧.
(٧) المصدر السابق/ ١٣.
(٨) المصدر السابق/ ١٤.

ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة اتجاهات هي: رواية المعلومات التاريخية وأبرز من يمثلها جرجي زيدان وطه حسين (الوعد الحق)، وإبراهيم الأبياري، والسحار في عمله الضخم (محمد رسول الله والذين معه) (في عشرين جزءا). ورواية تعليم الصياغة والأسلوب، وأبرز مَنْ يمثلها علي الجارم. ورواية الترجمة الأدبية واختار لهذا النوع الدكتور أحمد كمال زكي وروايته (فارس الفرسان)[٩].

ثم انتقل إلى الدراسة التطبيقية فدرس من النوع الأول في هذا السفر رواية (فتح الأندلس) لجرجي زيدان[١٠].

ومن النوع الثاني (هاتف من الأندلس، وغادة رشيد) لعلي الجارم[١١].

ومن النوع الثالث (فارس الفرسان) للدكتور أحمد كمال زكي[١٢].

* * *

ويضم السفر الثاني دراسته عن رواية النضج: «التي تناولت التاريخ بأحداثه وشخوصه وملامحه تناولاً فنياً متكاملاً، وفقاً لأسس واضحة معروفة»[١٣]. وإذا كان أكثر كُتّاب الرواية السابقة من جيل الرواد في هذا الفن، فإن أكثر كُتّاب هذه الرواية من جيل البناة الذين ساروا على نهج الرواد واستلهموا خطاهم، وتلافوا جوانب القصور والتقصير في الجانب الروائي واستفادوا من النماذج الناضجة للرواية التاريخية عند الأمم الأخرى. وهذا النوع من الرواية يتميز - إضافة للبناء الفني الناضج - بتوظيف أحداث التاريخ وشخوصه لخدمة القضايا المعاصرة مع الاحتفاظ للتاريخ بحقيقته وطبيعته[١٤].

ويمثل هذا النوع عدد كبير من كُتّاب القصة، يأتي في مقدمتهم نجيب محفوظ ومحمد فريد أبو حديد، وعبدالحميد جودة السحار، وعلي أحمد باكثير، ونجيب الكيلاني، ومحمد سعيد العريان، وثروت أباظة، ومحمد عوض محمد، وكمال بسيوني وغيرهم كثيرون[١٥].

---

(٩) المصدر السابق/ ١٤-١٥.

(١٠) المصدر السابق/ ١٦-٤٠.

(١١) المصدر السابق/ ٤١-٧٩.

(١٢) المصدر السابق/ ٨٠-١٠٠.

(١٣) المصدر السابق/ ١٠٣.

(١٤) المصدر السابق/ ١٠٣.

(١٥) المصدر السابق/ ١٠٤-١٠٦

ولكن الكاتب عمد إلى اختيار نماذج، رآها أكثر دلالة وإيضاحاً لمميزات هذا النوع، فاختار روايتين من روايات محمد فريد أبو حديد وهما (المهلهل سيد ربيعة) و(أبو الفوارس عنترة بن شداد) لأنهما من أكثر الروايات تعبيراً عن غايات الإنسان العربي، وتصويراً لقضايا الإنسان بصفة عامة في الحرية والعدل والكرامة الإنسانية، إضافة لبروز الخصائص الفنية للرواية التاريخية فيهما بشكل واضح[١٦].

واختار رواية «على باب زويلة» من روايات محمد فريد أبو حديد التاريخية لأنها تمثل سقوط دولة المماليك، وقيام الدولة العثمانية، وتوضح صراع المماليك فيما بينهم، فضلاً عن الصراعات الخفية الأخرى، وهي تعبر عن الحركة الداخلية للشعب المصري وهو يشاهد الصراع العنيف العجيب بين حكّامه وأمرائه، ليدفع هو ثمن هذا الصراع كضحية مقهورة[١٧].

واختار رواية «الثائر الأحمر» من روايات علي أحمد باكثير التاريخية، التي كانت تعالج ثورة القرامطة وما رافقها من أحداث وتزييف للحقائق، وتغرير بعامة الشعب باسم الشعارات الخادعة، كالعدل الشامل، والحرية، وكأن الكاتب كان يريد التحذير من تجارب مماثلة في واقع الأمة العربية التي تعيشها، وكانت الأحداث دليلاً على حدس الكاتب بعد احتلال القدس وهزيمة العرب، وتعاظم دولة يهود[١٨] وظهور الطائفية.

واختار رواية «أميرة قرطبة» من روايات عبد الحميد جودت السحار التاريخية، ضمن هذا القسم، لأنها ـ من وجهة نظر الكاتب ـ أكثر نضجاً من بقية رواياته من الناحية الفنية، ولأنها تتناول مرحلة من مراحل التاريخ الأندلسي، كانت فيها قرطبة تتأرجح بين عدوٍ خارجي (الفرنجة) وعدوٍ داخلي، يمثله التنافس بين الطامعين في السلطة، والطامحين إلى الحكم على حساب المبادىء والقيم[١٩]. وكأن هذه الرواية تحكي قصة الواقع الذي كانت تعيشه مصر آنذاك.

ثم اختار رواية «الباحث عن الحقيقة» لمحمد عبد الحليم عبدالله ضمن هذا النوع من رواية النضج، ليعبر من خلالها عن تجربة روحية ثرة[٢٠] في فترة تاريخية سبقت الدعوة الإسلامية.

---

(١٦) المصدر السابق/ ١١٠.
(١٧) المصدر السابق/ ١٤٤ـ١٤٥
(١٨) المصدر السابق/ ١٧٨.
(١٩) المصدر السابق/ ٢١٤.
(٢٠) المصدر السابق/ ٢٣٨.

واختار رواية «ابن عمار» لثروت أباظة ضمن الروايات التي تمثل النصح، وهي تعالج محنة المسلمين في التفرق والتشرذم والغرق في اللهو والترف والمتع الحسية، والصراع بين الحكام، والتحالف مع الأعداء بينما يتربص هؤلاء بالمسلمين لالتهامهم، واعتمدت في أسلوبها على الشخصية التي تجعل منها محوراً يحظى بكل اهتمام المؤلف[٢١].

ثم اختار القصة الوحيدة للدكتور محمد مصطفى هدارة «المنصورة» بين روايات هذا القسم لأنها تعالج كفاح أهل مصر ضد الصليبيين، وتركز على دور الشعب المصري في عملية الصراع مع الصليبيين[٢٢].

ويعد هذا القسم أكبر من بقية الأقسام من حيث عدد الروايات التي درسها المؤلف، وعدد الكُتّاب الذين تطرق إليهم في دراسته، وعدد القضايا التي أشار إليها، واستخلصها من هذه الروايات[٢٣].

* * *

وفي السفر الثالث، درس المؤلف نماذج من «رواية الاستدعاء»[٢٤] «وهي الرواية التي تتخذ التاريخ وسيلة لمعالجة قضايا معاصرة، حضارية أو سياسية، دون التزام صارم بوقائع التاريخ، بل قد يكتفي الكاتب بخلق جو تاريخي يشعر القارىء بأن موضوع الرواية يجري في مرحلة تاريخية ما، دون أن يكون للموضوع أي أساس من الحقيقة.

إن الكاتب يتخيل أن شخوصه وأبطاله يعيشون في عمق التاريخ دون أن يكون لهم وجود تاريخي حقيقي».

«وقد يستدعي الكاتب شخصية تاريخية ويبعثها في الواقع، ويحركها ويواجهها بالناس ليفسر موقفه من قضية ما. . .» «وقد يأخذ الكاتب من شخصية ما مشهورة أو مغمورة خيطاً روائياً واضحاً في حياتها وينسج من حولها بناءً روائياً ينتمي إلى الواقع والعصر، وتصبح الشخصية مجرد قناع. . .».

---

(٢١) المصدر السابق/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) المصدر السابق/ ٢٦٩.

(٢٣) استغرق هذا السفر الصفحات ١٠١-٢٨٥، وبلغ عدد القصص المدروسة فيه ثمانية وهي أكثر من نصف الروايات المدروسة.

(٢٤) استغرق هذا السفر الصفحات ٢٨٩-٣٧٧.

«وربما يكون الحدث التاريخي هو محور الرواية، ولكن الكاتب يصنع منه معادلاً لحدث ما في زمانه، ويتولى رسم الشخوص والصياغة بروح معاصرة. . .»[٢٥] وهذا النوع من أهم أنواع الرواية التاريخية، لأنه يحمل فلسفة الكاتب وأفكاره ضمن إسقاطات تاريخية، ومن خلال إطار من التاريخ يضفي على الموضوع هالة من الأهمية والعمق والإثارة. ومثل هذا اللون يحتاج إلى قدرة فنية واضحة، واستيعاب لإيحاءات التاريخ، وموهبة تستطيع توليد الأحداث التاريخية لخدمة صور معاصرة، مع النجاح في إيجاد الرابط الوثيق بين معطيات التاريخ وموضوع الواقع المعاصر، لذلك نجح بعض الكتاب في هذه الرواية وأخفق آخرون[٢٦] واكتفى المؤلف بتقديم ثلاثة نماذج من هذه الرواية تمثل أجيالاً ثلاثة متعاقبة من الكُتّاب أيضاً، أول هذه النماذج «رحلة ابن فطومة» لنجيب محفوظ، «وهي تمثل استدعاء الإطار التاريخي، والتحليق في عالم خيالي يشبه عالم ألف ليلة وليلة ليعالج أخطر القضايا التي تعاني منها الأمة. . .».

ورواية «عمر يظهر في القدس» لنجيب الكيلاني «حيث يستدعي شخصية الخليفة الثاني، ويبعثه حياً ليسير في شوارع القدس المحتلة. . . لنرى ماذا سيقول عمر ويفعل أمام هذه المحنة القاسية»[٢٧].

ورواية «من أوراق المتنبي» لمحمد جبريل «ويستدعي فيها شخصية الشاعر ـ المتنبي ـ في رحلته. . سعياً وراء الحلم الملح بالإمارة والسيادة»[٢٨] ولعل هذا النوع من الروايات أقل من غيره، لأنه يحتاج إلى النضج الفني من ناحية، والقدرة على استيحاء التاريخ، واستخدامه بالطريقة المناسبة، ويرى المؤلف أن محمود تيمور كان أوّل مَنْ كتب هذه الرواية حينما كتب روايته «كليوباترة في خان الخليلي» عام ١٩٤٤م.

وأما نجيب محفوظ، فإنه استخدم هذا النوع في مرحلة متقدمة من نضجه الأدبي

---

(٢٥) المصدر السابق/ ٢٨٩، وحرصت على نقل عبارات المؤلف عن هذا النوع لتوضيحه بشكل دقيق.

(٢٦) المصدر السابق/ ٢٩٠.

(٢٧) لقد نشرت دراسة لهذه الرواية منذ السبعينات، انظر كتابي «في الأدب الإسلامي المعاصر/ ١٩٧ـ٢٠٩، وانظر كتاب (رحلتي مع الأدب الإسلامي) للدكتور نجيب الكيلاني/ ١٥٠ـ١٦١، ط١ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة.

(٢٨) الرواية التاريخية / ٢٩٢.

ولذلك ظهرت رواياته «أمام العرش، ورحلة ابن فطومة» اللتان تمثلان الاستدعاء التاريخي الخصب الثري.

وأما نجيب الكيلاني فلقد لجأ إلى استدعاء التاريخ الإسلامي بصورته الناصعة ليعالج من خلاله قضية معاصرة، قضية إسلامية، تُعد في ذروة القضايا التي تستحق من المسلمين الاهتمام وبذل الجهد والجهاد في سبيلها، وهي قضية القدس، والمسجد الأقصى، والحرم القدسي الشريف، وفلسطين بشكل عام. إنها القضية التي لعبت بها السياسة، وغيَّبتها عن حقيقتها الإسلامية ووضعتها في إطار وطني - حيناً -، وقومي - حيناً -، وإقليمي، وعالمي واقتصادي، وإنساني في أحيان أخرى، ولكنها أبعدتها، أو حرصت على إبعادها عن حقيقتها الإسلامية، ولذلك لجأ نجيب الكيلاني إلى استدعاء الخليفة عمر بن الخطاب، ليفتح أبصار المسلمين على حقائق هذه القضية، وعلى سبل حلها، وكان لهذا الاستدعاء أسبابه الموضوعية، فعمر بن الخطاب كان الخليفة الذي فُتحت القدس في عهده، وسافر ليتسلم مفاتيحها، ويوقع وثيقة الفتح مع سكانها من النصارى آنذاك[٢٩]. إضافة لإيحاءات شخصيته الإسلامية الفذة.

وأخيراً عرض قصة «من أوراق أبي الطيب المتنبي» لمحمد جبريل الذي يُعد من أغزر كُتّاب الموجة الثالثة، للقصة المصرية، وله قصص كثيرة استخدم فيها هذا النوع من القصص، وكانت روايته هذه صورة من استدعاء التاريخ الأدبي والسياسي في فترة محددة من حياة الشاعر، وهي فترة وجوده في مصر، وكانت ميزة الكاتب في هذه الرواية تميل إلى التركيز والتكثيف في أسلوبه[٣٠] بشكل يجعله واضحاً ومتميزاً عن غيره من الكُتّاب.

* * *

بعد هذا العرض السريع لهذه الدراسة القيمة لا بد من بعض الإشارات إلى أمور بدت لي من خلال هذه الدراسة، وإن كان من الصعب الوقوف عند جميع القضايا في الروايات

---

(٢٩) انظر دراستي عن هذه القصة في كتاب (في الأدب الإسلامي المعاصر)/ ١٩٧.

(٣٠) الرواية التاريخية/ ٣٥٦. لن نتوقف عند اختيارات الكاتب ومدى نجاحه فيها لأن ذلك مرتبط بالمنهج الذي حدده لنفسه منذ البدء، ولم لم يفعل ذلك لكان بالإمكان مناقشة بعض هذه الاختيارات.

المدروسة التي بلغت خمس عشرة رواية فضلاً عن الروايات الأخرى التي أشار إليها الكاتب، في معرض المقارنة، أو توضيح مميزات الكاتب، أو خصائص فنه الروائي في هذا اللون.

١ـ لقد تفاوتت وقفات المؤلف عند الروايات المدروسة، وكان هذا التفاوت مرتبطاً بنوع الرواية، وقيمتها الفنية، وغنى الأفكار، وبروز الشخصيات وحيوية الحوار، وتميّز الأسلوب، ففي حين لم تنل رواية «فتح الأندلس أو طارق بن زياد» سوى إحدى عشرة صفحة[٣١]، فقد نالت بعض القصص أضعاف هذه الصفحات[٣٢]، وكان الكاتب في وقفاته مع هذه الروايات يتألق، ويتعمق أحياناً كثيرة، ويبدو دارساً عادياً في أحايين أخرى ولكنه في جميع وقفاته كان يحرص على التعريف بالكاتب، وبإنتاجه عامة ـ الروائي وغيره ـ مع التركيز على الجانب الروائي، ثم تخصيص الرواية التاريخية باستعراض عام لموضوعاتها وأهم مميزاتها، ليصل من ذلك كله إلى اختيار الرواية التي سيدرسها.

وفي دراسة الرواية يبدأ بعرض موضوع الرواية الأساسي، وأحداثها بشكل مجمل، وظروفها البيئية والاجتماعية، أو الثقافية، أو السياسية تبعاً لطبيعة الرواية، مع التركيز على المحور الأساسي للرواية، أو المحاور الرئيسية إن كان لها أكثر من محور، ويحاول ربط أهم الأحداث، والشخصيات بالمحور الرئيسي لتفسير الأسباب الكامنة وراءها.

ثم ينتقل لتحديد بطل الرواية وطريقة تقديمها ورسمها، من خلال الوصف الخارجي أو الداخلي، أو من خلال تطور الأحداث، وإجراء الحوارات، أو الرسائل أو البوح الداخلي... إلخ، وينتقل للتحدث عن بقية شخصيات الرواية ومهمة كل شخصية، وصلتها بالأحداث، ودورها المنوط بها، وطريقة رسمها ومدى نجاح الكاتب في إبرازها ورسم ملامحها المناسبة لها، وقد يعقد المؤلف مقارنات بين بعض الشخصيات في الروايات المدروسة وغيرها من روايات الكاتب ذاته أو غيرها.

---

(٣١) الرواية التاريخية، انظر الصفحات من ٢٩ إلى ٤٠ في الكتاب.

(٣٢) لقد نالت روايتا علي الجارم مع التعريف به (٤٠) صفحة، بينما نالت رواية (الثائر الأحمر) لباكثير ٣٤ صفحة، ورواية (علي باب زويلة) للعريان (٣٦) صفحة، ورواية (رحلة ابن فطومة) مع التعريف بروايات نجيب محفوظ التاريخية (٣٣) صفحة، ورواية (عمر يظهر في القدس) مع التعريف بروايات نجيب الكيلاني التاريخية (٢٧) صفحة.

ثم يحدد زمان الرواية ومكانها، ويتحدث عن فصولها، وطريقة بنائها ويتوقف كثيراً عند الأساليب التي اتبعها كُتّاب الروايات، ويتعمق في دراسة هذه الأساليب، ويكثر ـ أحياناً ـ من الاستشهادات والمقارنات، ويربط بين الظواهر الأسلوبية التي يستخلصها، والمدارس الأدبية النثرية في مصر[٣٣] في العصر الحديث.

ويتحدث أيضاً عن مدى نجاح الشخصيات والحوادث في إثارة القضايا والإيحاء بالتوجهات، وتحقيق الأهداف التي يريدها الكاتب من روايته. ويتوقف المؤلف عند المميزات البارزة في كل رواية من الروايات المدروسة، والعناصر الإيجابية والسلبية التي أثرت في الرواية، وينتهي إلى تلخيص النتائج التي توصل إليها من خلال الدراسة في أكثر الأوقات.

وإذا كانت هناك عناصر أساسية للرواية تفرض على الدارس التوقف عندها، فإن كل رواية على حدة تدعو الدارس لإيثار عنصر بمزيد من النظر والتوقف، أو للاستطراد حول فكرة أوحت بها الرواية وألجأته إلى هذا الاستطراد، لم يكن في غيرها من الروايات، وهذا ما كان واضحاً في الدراسة أيضاً.

* * *

٢ـ هذا البحث الجاد ـ كغيره من الأبحاث ـ لا بد له من وجود ثغرات غفل عنها المؤلف، أو قصر فيها، أو أخطأ، ولا يضير أي بحث جاد أن يعتوره شيء من النقص أو القصور أو الخطأ.

وسأذكر بعض هذه الثغرات، اجتهاداً مني في دفع الباحث للوصول إلى الإجادة الأفضل، وتجنب ما يمكن تجنبه من الثغرات التي لا يسلم منها بشر.

---

(٣٣) للمؤلف دراسة قيمة عن (مدرسة البيان في النثر الحديث) ودراسات عن بعض الروائيين والروايات. ولقد أفادته هذه الدراسات في تبين المميزات الأسلوبية في الروايات المدروسة وإرجاعها إلى أصولها النابعة منها. انظر الرواية التاريخية الصفحات ٧٠ـ ٧١ـ ٧٢ـ ٧٣ـ ٧٤ـ ٧٥ـ ٧٦ـ ٧٧ـ ٧٨ـ ١٣٢ـ ١٣٣ـ ١٣٤ـ ١٣٥ـ ١٣٦ـ ١٦٠ـ ١٦١ـ ١٦٢ـ ١٦٥ـ ٢٠٧ـ ٢٠٨ـ ٢٠٩ـ ٢٨١ـ ٢٨٢ـ ٢٨٣ـ ٣٤٨ـ ٣٤٩ـ ٣٧٢ـ ٣٧٣ـ ٣٧٤ـ ٣٧٥ـ ٣٧٦ على سبيل المثال وليس الحصر، لأن الكاتب توقف في جميع =

أ ـ لم تحدد الدراسة بلداً ولا إقليماً، بل أوحى عنوان الكتاب أنه يشمل الرواية التاريخية في الوطن العربي كله، ولذلك كان من المفترض أن تتعدى هذه الدراسة مصر، وإن كانت تمثل المجال الأرحب والأكثر في هذا الموضوع، ولكن ذلك لا يعفي الدارس من استعراض نماذج أخرى في بقية البلدان العربية، في بلدان المغرب العربي، والسودان ودول الخليج واليمن وبلاد الشام والعراق. . . لتجاوز المحلية ونفي مظنة العصبية، لا سيما وقد ظهر ذلك في توجيه عدد من الروايات المدروسة من قبل كتابها هذه الوجهة.

ب ـ بنيت الدراسة على تقسيم الرواية التاريخية إلى الأقسام الثلاثة (التعليم، النضج، الاستدعاء) وعلينا احترام وجهة نظر الباحث وتقديرها، ولكنه لم يوضح الأسس التي قام عليها هذا التقسيم، والذي يبدو لي أن الأول يوحي ويرتبط بالمضمون والهدف، والثاني يرتبط بالأسلوب الفني، والثالث بالطريقة والمضمون.

وقد يتهم القراء الباحث بأنه أخضع الروايات منذ البدء لأحكام جاهزة قسرية، وحاول تفسيرها على أساس هذا التقسيم. ويخيل لي أن القارىء بين حالتين:

- إما أن يقبل التسمية (المصطلح) وكأنه افتراض وضعه المؤلف للتمييز بين مرحلة وأخرى، أو نوع وآخر، أو سمة وسمة، فلا يكلف نفسه ـ بعدها ـ عناء البحث حول مضمون المصطلح، ولا يحاول الربط بين نتائج الدراسة وما يوحيه المصطلح من مفهوم ومضمون.

- وإما يتوقف عند (المصطلح) ويحاول فهمه، ومعرفة مضمونه، وتطبيق نتائج الدراسة على ما فهمه من المصطلح، وهنا سيصطدم بأمور يراها تتعارض، أو يصعب عليه تفسيرها، أو الربط بينها وبين مفهوم التسمية.

ج ـ وكنت أتمنى لو مهد الكاتب لدراسته الجادة الجيدة هذه بمقدمة عن الرواية التاريخية وتطورها، وأبرز كتابها، لتضع أرضية واضحة تفيد القارىء في الدخول إلى هذه الدراسة، والاستفادة من نتائجها.

= الروايات عند الأسلوب، وكان موفقاً في أكثر وقفاته، وكانت دراسته للأسلوب من أوضح الفقرات التي تضمنتها هذه الدراسة التطبيقية.

د ـ يبدو لي أن التقسيم راعى المضمون والهدف في النوعين الأول والثالث أكثر من الشكل الفنـي بينما استند القسم الثاني (رواية النضج) إلى الشكل الفني أكثر، فهل كان هذا التقسيم مميزاً لكل نوع على أرض الواقع؟ يبدو لي أن صفة (النضج) قد تصدق على بعض الروايات في القسم الأول، وكذلك تصدق على جميع روايات القسم الثالث.

هـ ـ لم يقدم المؤلف تصوراً واضحاً للرواية التاريخية وشروطها وحدودها كما استخلصها من دراساته لتكون أساساً لبناء هذه الدراسة الجيدة، ولا يكفي الإشارة إلى الأسس الواضحة المعروفة التي تعارف عليها كُتّاب الرواية في الغرب، ثم نقلها العرب واصطلحوا على اتباعها وتحكيمها فيما يقدم من أعمال روائية[٣٤] كما يقول المؤلف.

فالباحث الذي يتصدى لدراسة شاملة، ويبذل من الجهد والوقت ما بذله المؤلف، حري به أن يتحدث عن الرواية التاريخية من أصالة واعية، يربط فيها بين تراثنا في هذا الشأن، والصور الروائية المبثوثة في هذا التراث، من عصر الجاهلية إلى اليوم، فضلاً عن المعين العظيم الذي يمدنا بقبسات عظيمة في هذا الفن وهو كتاب الله العزيز الذي حوى من القصص التاريخية نماذج كثيرة متنوعة. وهناك كتب التاريخ، والسيرة، والتراجم، والمغازي والأمالي والمنتخبات، وهي تحوي عطاءً جيداً في هذا الشأن[٣٥] ولا يمنع هذا من أخذ المفهوم الغربي للرواية التاريخية بعد مناقشتها مناقشة موضوعية، والحكم عليه حكماً عادلاً، واستخلاص الصورة الأوفى لهذا الفن الروائي.

و ـ وكذلك لم يوضح العلاقة بين الواقعة التاريخية، والرواية الفنية، والإطار الذي ينبغي للكاتب أن يعمل داخله ويتحرك وسطه دون تجاوز. لأن الحقيقة هـي الغاية البعيدة لأي عمل، إضافة إلى الغايات الأخرى التي يقصدها المؤلف من الشكل الفني الذي يختاره.

ز ـ هناك عدد من الأمور التي تحتاج إلى مزيد من التعليق والتوقف ومنها: الروح المتحيزة الظالمة التي بدت واضحة في جميع روايات جرجي زيدان، بعد أن أخرجها تحت

---

(٣٤) الرواية التاريخية/ ١٠٣.

(٣٥) انظر كتاب (في الرواية العربية) لفاروق خورشيد، مع أنه ضم فقرات خطيرة تسيء إلى السيرة التاريخية والحديث الشريف، ولي دراسة عن الكتاب لم تنشر بعد.

لافتـات إسلامية، وكان تشويه التاريخ، وإفساده، والإساءة إلى الأبطال الفاتحين وتشويه صورهم، وبذر الشكوك غاية من الغايات، فكان من المهم إيضاح ذلك من خلال الدراسة بشكل أوفى.

وفي كثير من الـروايات المـدروسـة كان كتـابهـا يغلبـون المحلية، والـولاء لمصر، والفـرعـونية، ويفسـرون الأحـداث لتوحي بذلك، بل يفسرون الأحداث الإسلامية بهذه المفـاهيم المحلية الضيقـة أو التوجهات السياسية والمبادىء الحزبية التي كانت تتحكم بالحياة السياسية والاجتمـاعية في عدد من البلدان العربية ومنها مصر(٣٦)، وكانت الدعوة للفرعونية، أو المصرية واضحة، ومع ذلك تجاوز عنها الكاتب بعد تعليق بسيط لا أجده قد وفى بالغرض المطلوب.

وكذلك أثيرت قضية اللغة العربية والعامية(٣٧)، وكان من المستحسن إعطاؤها قدراً أكبر لأهميتها.

وأضيف بأن الكـاتب كان يستخـدم بعض المصـطلحـات الأجنبية ويكررها مع أنه بالإمكان استبدالها بالمصطلح العربي، أو المضمون العربي(٣٨).

٣ـ وأخيراً فإن الدراسة قد أضافت أموراً كثيرة للدراسات الأدبية وسدت نقصاً كبيراً، وأدت خدمـة جلى للعربية عموماً، وللفن الروائي، ولا سيما الرواية التاريخية، ونفضت الغبار عن كثير مما تناساه الدارسون، ولفتت أنظار الباحثين إلى معين التاريخ، وأهميته، وإلى ارتباط التراث بأي نهضة نريدها وأشارت إلى أن مسألة التراث ليست منفصلة، وإنما هي نسغ يمتد، ويجري من أعماق ماضينا إلى حاضرنا ومستقبلنا.

ولكم كنـا نتمنى أن تختم هذه الـدراسـة القيمـة بفصـل يستخلص النتـائج ويحدد المميزات الخـاصـة بالـرواية التاريخية، لاستثمارها، واستشرافها من خلال مستقبل هذا الفن، والأدب الإسلامي بعامة وعلينا أن نشكر المؤلف على هذا العطاء وندعوه إلى المزيد.

---

(٣٦) انـظر مثلاً/ ٢٧٦ في قصة المنصورة. أو الصفحات/ ٢٩٦ـ ٢٩٧ـ ٢٩٨ ٢٩٩ـ٣٠٠... ولعل باكثير، ونجيب الكيلاني كانا بعيدين كل البعد عن هذه الشبهات.

(٣٧) المصدر السابق/ ٣٥.

(٣٨) انظر مثلاً/ ١٢١ السوبرماء و/ ٣٥٤ الفانتازيا وغيرها.